أسرار إعجاز سورة الكوثر

شحادة حميدي العمري *

تاريخ وصول البحث: 2004/12/21م تاريخ قبول البحث: 2005/9/19م

ملخص

يتناول هذا البحث سورة الكوثر, هذه السورة التي خاطبت رسول الله ε بآياتها الثلاث مبينة بأن الله أعطاه الخير الكوثر, وأمره أن يجمع بين الصلاة والنسك شكراً لخالقه سبحانه الذي وعده ببتر أعدائه ومبغضيه في كل وقت وحين.

Abstract

This research studies surat AL-Kawthar which addressed the Massenger of God (peace be upon him) through its three verses. The verses declair that God gave Him in abundance, and commanded Him to bring prayers and rituals together showing gratefulness to His Creator Who promised to uproot His enemies and those hating Him every now and then.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فيسرني أن أتقدم بهذا البحث لدراسة سورة الكوثر، وإبراز أسرار إعجازها الكامنة في أعطاف آياتها. وسبب الاختيار لهذه السورة الفذة كونها ثلاث آيات بينات قد أعجزت الإنس والجن أن يأتوا بمثلها عند نزولها، ولا يزال التحدي قائماً وسيظل كذلك ما اختلف الملوان وتعاقب الجديدان.

هدف البحث ومسوغاته:

يهدف البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- إثبات عجز العرب ا لخلّص عن مقابلة ومعارضة هذه السورة القصيرة، وإقبالهم على المقاتلة والمسايفة، وهو ما ينسحب على كل من يرفع عقيرته باللدد والخصومة في كل زمان ومكان.
- إظهار فرائد المباني، وفوائد المعاني الكامنة في نظم سورة الكوثر التي جاءت متآخية متعانقة يأخذ بعضها بعنق بعض، وفي ذلك من دقة الإيجاز، وروعة الإعجاز، ما يبهر العقول.
- بيان اختصاص هذه السورة الكريمة برسول الله ε كأختيها سورتي: (الضحى والشرح) اللتين نزلتا قبل الهجرة، وإنها لتحمل في مضامينها التسلية لسيد ولد آدم ε وهو ما ينبىء عنه ظاهر ألفاظ آياتها.

1. إعطاء الأمل للأمة الإسلامية بأنها أمة الريادة في المستقبل الواعد أخذاً من بتر أعداء رسول الله ε في آية **[إِنَّ شَانِئَكَ هُوالْأَبْتَر]**[3: الكوثر] فإن المبغض لرسول الله ε إنما هو مبغض لدينه الحق الذي ارتضاه الله **[إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَام]**[19: آل عمران] وهو ما يكشفه نظم الآية بأسلوب القصر.

الدراسات السابقة:

تحدثت مؤلفات التفسير عن تأويل السورة، ولم تخرج عن بعض اللفتات واللمحات الكامنة في أعطافها مما لا يشبع نهم المتعطشين إلى بلاغة هذه السورة الفريدة.

- وأول من أفرد هذه السورة بدراسة مستقلة، وكشف عن بعض أسرار إعجازها علامة البيان الإمام الزمخشري- رحمه الله تعالى- (ت 528هـ) الذي

---

* أستاذ، كلية الشريعة، جامعة مؤتة.

أفردها برسالة جزلة جواباً عن سؤال ورده قال رحمه الله تعالى: "وأنا أضرب لك سورة الكوثر – وهي أقصر السور – مثالاً أنصبه بين يديك، وأجعله نصب عينيك، فأنت أكيس الأكياس"، لكنه لم يعرض لتفسيرها.

– ثم اختصر الإمام فخر الدين الرازي – رحمه الله تعالى – (ت606هـ) هذه الرسالة وضمنها كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) من غير تعليق أو تعقيب.

أما المعاصرون فلا أعلم أحداً أفرد هذه السورة بدراسة بيانية مستقلة على الرغم من حديث الدكتورة بنت الشاطىء – رحمها الله تعالى – في كتابها (التفسير البياني) عن قصار السور، لكنها لم تعرض لسورة الكوثر.

وكذلك الأستاذ محمد المبارك – رحمه الله تعالى – لم يتكلم عن سورة الكوثر في كتابه (دراسة أدبية لنصوص من القرآن).

وممن درس بعض السور القرآنية (دراسة أدبية في ضوء خصائص المكي والمدني)، الأستاذ الدكتور صبحي الصالح – رحمه الله تعالى – لكنه لم يتحدث عن هذه السورة أيضا على الرغم من كونها أقصر سورة يقع بها التحدي.

لذلك رأيت من المناسب إفراد هذه السورة الكريمة بدراسة بيانية، أعرض فيها لأسرار إعجازها؛ لتكون لبنة في بناء الدراسات القرآنية البيانية المعاصرة التي دبجتها أسلات أقلام أساطين البيان في هذا الزمان

وجاء البحث في تمهيد وأربعة مباحث وخاتمة.

التمهيد : مقدمات عامة عن سورة الكوثر.

المبحث الأول : الإعجاز والتحدي في سورة الكوثر.

المبحث الثاني: قوله تعالى **(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)**.

المبحث الثالث: قوله تعالى **(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)**.

المبحث الرابع: قوله تعالى **(إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)**.

الخاتمة : وفيها خلاصة البحث وأبرز نتائجه.

والله أسألُ أن يكون عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سورة الكوثر

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3))

تمهيد: مقدمات عامة عن سورة الكوثر.

أولا: تعريف عام بالسورة الكريمة.

1- تسميتها:

اشتهرت هذه السورة باسم "سورة الكوثر" قال العلامة ابن عاشور: "سميت هذه السورة في جميع المصاحف التي رأيناها، وفي جميع التفاسير أيضا "سورة الكوثر"(1) وسمّاها الإمام البخاري في الجامع الصحيح" سورة **(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)**(2) ثم روى بأسانيده عن أنس τ قال: "لما عُرج بالنبي ε إلى السماء، قال: أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجّوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر" (3) ويلوح لي أن الإمام البخاري رحمه الله تعالى أراد بيان صفة النهر فعنون بآية **(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)**، فقال" سورة **[إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ]**. والله أعلم.

وذكر الإمام البقاعي رحمه الله تعالى في كتابه نظم الدرر اسمين للسورة الكريمة هما: الكوثر ، والنحر، قال:" سورة الكوثر، وتسمى سورة النحر" (4) ووافقه الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي.(5)

وأما الإمام السيوطي فلم يذكر هذه السورة مع السور التي لها أكثر من اسم في الإتقان(6)، وهو دليل على انه يرى الكوثر الاسم الوحيد للسورة. وما عنون به الإمام البخاري لا يخرج عن هذا الاسم، وأما اسم (النحر) فيندرج مع الكوثر ؛ لأنه من الخير الذي أوتيه ε، والله أعلم.

2 - ترتيبها وعدد آياتها:

هذه السورة هي الثامنة بعد المائة في ترتيب المصحف الشريف، آياتها ثلاث بالإجماع (7)، ولا خلاف في ذلك ألبتة. "وهي أقصر سور القرآن عدد كلمات، وعدد حروف، وأما في عدد الآيات فسورة العصر وسورة النصر مثلها، ولكن كلماتها أكثر"(8)

وهي السورة الوحيدة التي تخلو من حرف (الميم) بآياتها الثلاث.

3- نزولها:

اختلف العلماء في تاريخ نزول سورة الكوثر، قال الأكثرون: إنها مكية، وقال آخرون: إنها مدنية(9).

ثانيا: موضوع السورة

موضوع سورة الكوثر هو بيان المنن الإلهية، والنعم الربانية التي أنعم الله Y بها على عبده ورسوله محمد ε، قال الفيروزآبادي: "معظم مقصود السورة: بيان المنة على سيد المرسلين ε، وأمره بالصلاة والقربان، وإخباره بإهلاك أعدائه أهل الخيبة والخذلان"(10).

وموضوع السورة يرتبط بموضوع سورتي الضحى والشرح وما فيهما من النعم السابغة على رسوله ε، قال تعالى لنبيه ε **(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)**[5: الضحى] فأعطاه الكوثر، وقال له **(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)**[4: الشرح]. فرفع ذكره ε ببتر أعدائه وأعداء دينه بقوله سبحانه **(إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)**.

إنّ هذه السورة "من أعظم أغذية الإيمان، والتذكير بما أعطى الله رسوله خاتم النبيين عليه أفضل الصلاة والسلام من أنواع الخير الكثير في الدنيا والآخرة الذي رفع ذكره، وخلّد تاريخه، ومحق ذكر شانئه"(11).

وقد أوجز الإمام البقاعي موضوع السورة فقال- رحمه الله تعالى- " مقصودها المنحة بكل خير يمكن أن يكون"(12). ومن أنعم نظره في السورة الكريمة التقط الدرر من مضامين كلماتها في آياتها، ومن آياتها الثلاث التي جاءت لتحقق موضوعاً واحداً هو الخير الكوثر لصاحب الكوثر ε.

ثالثا: مناسبة السورة لما قبلها

ذكر الله سبحانه في سورة الماعون أربع صفات للمنافقين هي:

البخل، وترك الصلاة، والمراءاة في الصلاة، والمنع من الزكاة، وهي مساوئ الأخلاق التي أفصحت عنها هذه السورة، ونطقت بالتحذيرمنها؛ لشناعتها، وسوء منقلب مرتكبها. فجاءت سورة الكوثر مفتتحة بذكر الخير الكوثر، مبينة ما أعطاه الله سبحانه لنبيه ε الذي كان أجود من الريح المرسلة، قال الامام الرازي في بيان مناسبة هذه السورة لما قبلها: "اعلم أن هذه السورة على اختصارها فيها لطائف: إحداها: أن هذه السورة كالمقابلة للسورة المتقدمة، وذلك لأن السورة المتقدمة وصف الله تعالى المنافق بأربعة أمور: (أولها): البخل...(الثاني): ترك الصلاة... (الثالث): المراءاة في الصلاة... و(الرابع): المنع من الزكاة... فذكر في هذه السورة في مقابلة تلك الصفات الأربع صفات أربع، فذكر مقابل البخل قوله **(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)**، وذكر في مقابلة **(الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)** قوله **(فَصَلِّ)** وذكر في مقابلة **(الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ)** قوله **(لِرَبِّكَ)** وذكر مقابلة **(وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)** قوله **(وَانْحَرْ)** واراد التصدق بلحم الاضاحي، فاعتبر هذه المناسبة العجيبة"(13).

وما ذكره الإمام الرازي من مناسبة يعد من لفتاته ولطائفه التفسيرية، فقد أجاد وأفاد رحمه الله تعالى، وأما ما ذهب إليه من تفسير **(وَانْحَرْ)** بأنه التصدق بلحم الأضاحي ففيه تضييق لمتسع؛ لأن **(وَانْحَرْ)** أعم وأشمل من نحر الأضاحي، وتقييد معناها بالأضاحي لا يتفق وسياق الآية، فان السورة إذا عدّت مكية، فليس ثمّ نُحر أضاحي، وإذا عدت مدنية، فحصر المعنى بالأضاحي تقييد لكلمة **(وَانْحَرْ)** وتضييق لمعناها.

ولابن الزبير في البرهان كلام طيب في مناسبة السورة لما قبلها، قال رحمه الله تعالى: "لمّا نهى عباده عما يلتذ به من أراد الدنيا وزينتها من الإكثار والكبر

والتغرر بالمال والجاه وطلب الدنيا، أتبع ذلك بما منح نبيه ε مما هو خير مما يجمعون وهو الكوثر وهو الخير الكثير... وقد اضمحل في جانب نعمة الكوثر الذي أوتي كل ما ذكره الله تعالى في كتابه من نعيم أهل الدنيا، وتمكن من تمكن منهم، وهذا أحد موجبات تأخير هذه السورة، فلم يقع بعدها ذكر شيء من نعيم الدنيا، ولا ذكر أحد من المتنعمين بها؛ لانقضاء هذا الغرض وتمامه، وسورة الدين آخر ما تضمن الإشارة إلى شيء من ذلك..." (14).

ويظهر لي أن افتتاح سورة الكوثر بقوله تعالى **(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ)** له صلة بخاتمة سورة الماعون، ذلكم لأن منع الماعون فيه تقتير للعطاء بمنع ما يتداوله الناس في معاشهم على الرغم من عدم نفاسته ، فبدئت سورة الكوثر بالعطاء الأكثر الذي لا يعد ولا يحصى ؛ لأنه من الله سبحانه لنبيه ε سيد البشر والأولين والآخرين، ولذلك ناسب افتتاح سورة الكوثر خاتمة سورة الماعون، والله أعلم.

و "إن موقع هذه السورة من التي قبلها كموقع ذكر النعمة بعد النقمة، والعطاء بعد السلب، والمستخلفين بعد المُهلكين، وذلك أسلوب شائع في القرآن"(15).

لقد جاءت هذه السورة الفذة واسطة العقد في نظامها فإن كل نعيم ذكر في القرآن من فاتحة الكتاب حتى سورة الكوثر قد ختم بهذه النعمة السابغة، وكل ما جاء بعد السورة من سور إنما هي مرتبطة بها ومبينة لمضامينها

قال صاحب إمعان النظر "ويبدو بعد التأمل في نظام هذه السورة كأن القرآن أكمل وختم بهذه السورة العظيمة، وأما السور التالية لها فهي تكملة لها وتبيين لمحتوياتها..." (16).

المبحث الأول

الإعجاز والتحدي في سورة الكوثر

يتحدث هذا المبحث عن التحدي بسورة الكوثر، وما فيها من أسرار الإعجاز، وانتظم في: أولا: التحدي بسورة الكوثر. ثانيا: إعجاز سورة الكوثر.

أولا: التحدي بسورة الكوثر

قال الله تعالى: **(وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فاتقوا النار الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)**[23: البقرة].

هذه الآية من سورة البقرة هي آخر آيات التحدي نزولا، امتازت على أخواتها آيات التحدي بعدة مزايا منها:

1. هي الآية المدنية الوحيدة، وبقية آيات التحدي مكية(17).
2. الآية الوحيدة التي ذكر فيها **(عَبْدِنَا)** ε.
3. الآية الوحيدة التي جاء فيها حرف الجر **(من)** في قوله تعالى **(بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ)**.
4. مجيء **(فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ)** في سياق آية البقرة دليل على عجز الأنس والجن على التأبيد **(وَلَن تَفْعَلُواْ)** وهو الواقع من لدن نزول القرآن حتى عصرنا الحاضر إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها، وعجزهم عن سورة الكوثر ينسحب على جميع القرآن الكريم.

وقد عني الأصوليون في تعريفهم للقرآن الكريم بقيد (بسورة منه) وتنافس الشراح في بيان المراد بهذه العبارة (بسورة منه) وظاهر كلامهم أنها سورة الكوثر لأنها أقل ما يقع به التحدي. قال الإمام ابن السبكي-عليه رحمة الله تعالى-القرآن: "هو اللفظ المنزل على محمد ε للإعجاز بسورة منه المتعبد بتلاوته"(18).

قال جلال الدين المحـلي في شرحه للتعريف: "... وقوله (بسورة منه) أي، أيّ سورة كانت من جميع سوره حكاية لأقل ما وقع به الإعجاز الصادق بالكوثر، أقصر سورة ومثلها فيه قدرها من غيرها بخلاف ما دونها وفائدته كما قال: دفع إيهام العبارة

بدونه أن الإعجاز بكل القرآن فقط"(19) وأما اليوسي صاحب البدور اللوامع في شرح جمع الجوامع فقال: "قوله(بسورة منه): "ذكره لبيان الواقع، وهو أنه وقع التحدي بسورة منه، ولو أقصر سورة كالكوثر"(20) .

ثانيا:إعجاز سورة الكوثر

سورة الكوثر ثلاث آيات بينات موجزات، فيها الإيجاز والإعجاز، قليلة الألفاظ، كثيرة المعاني، من تأمل نظمها أدرك براعة بيانها، وروعة إعجازها، وقوة سلطانها على العقول والقلوب. توجه الخطاب في هذه السورة بآياتها الثلاث إلى رسول الله ε وهو ما لا نجده في باقي السور القرآنية. إنها السورة الخالصة لرسول الله ε في العهد المدني بعد أختيها سورتي الضحى والشرح في العهد المكي.

ومما امتازت به هذه السورة أنها سورة الخير الكثير، والنصر المؤزر، وفيها الأمل الواعد لهذه الأمة الإسلامية، أمة القرآن بأن النصر آت لا محالة إن شاء الله تعالى.

ومنْ أنعمَ نظره في نظم السورة يجدها تؤكد بتر الشانئين لرسول الله ε في زمنه ولدينه الإسلام، دين الحق بعد التحاقه بالرفيق الأعلى، ولا يزال البتر ملحوظاً.

ومن تأمل آية (**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**) يجدها تطرد اليأس والقنوط عن القلوب، لتظل قلوب المؤمنين مطمئنة بأن الله Y قد وعد، ووعده الحق وما يقع في تاريخ الإسلام من مد وجزر خير شاهد.

تلكم بعض إشارات الإعجاز والإيجاز في سورة الكوثر، وما ستظهره المباحث الثلاثة في دراسة كل آية على حدة أكثر وأجزل إن شاء الله تعالى، والله الموفق والهادي إلى الطريق الأقوم.

المبحث الثاني
قوله تعالى (إنا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَر)

إذا تأملت سورة الكوثر راعك بديع نظمها، وحسن بيانها، وعلمت علما لا يخالجه شك أن هذه السورة معجزة في إيجازها كما هي معجزة في مضامينها وبلاغتها.

لقد بدئت سورة الكوثر بآية (**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**) مصدرة ومفتتحة بأم المؤكدات (**إِنَّ**) مقترنة بنون العظمة (**نا**) المؤلفة من النون والألف وهي في موضع نصب اسم (**إنّ**)، خبرها جملة (**أَعْطَيْنَاكَ**) "جاء في هذه الجملة استعمال ضمير المتكلم العظيم، للإشعار بأن ما أعطاه الله لرسوله ε عظيم يناسب عظمة المتكلم جل جلاله"(21) والإتيان بنون العظمة اسما ل ـــ (**إنّ**)، "للتأكيد ولزيادة تشريفه ε..."(22).

الذي وعده ربه جل وعز في سورة الضحى المكية (**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**)[5: الضحى]، فأعطاه الكوثر، وبتر شانئيه فرضي ε– وهو راضٍ في كل وقت وحين– ε فضلاً عما أعدّ له في الآخرة من خير وعطاء.

وللصاوي رحمه الله تعالى كلام لطيف في جمعه بين الماضي في آية الكوثر، والمضارع في آية الضحى، قال:" إن قلت: إنه عبّر هنا بالماضي، وفي الضحى بالمضارع حيث قال (**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**) فكيف الجمع بينهما؟ أجيب: بأن ما في الضحى باعتبار التمكن والاستيلاء، وذلك يحصل في المستقبل في يوم القيامة، وما هنا باعتبار التقدير الأزلي"(23) ولا مانع من حمل الآيتين على الحياة الدنيا وتحقيق الوعد، وإذا علمنا أن آية الضحى نزلت في مكة زمن شدة ومحنة، وآية الكوثر نزلت وللإسلام دولة أدركنا أن التعبير جاء متفقا مع السياق، والله تعالى أعلم.

وجزالة نظم الآية يعبّر عنه أبلغ تعبير علامة البيان الإمام الزمخشري إذ يقول:"... تبصّر كيف نكت في كل شيءٍ تنكيتاً، يترك المنطيق سكيتا، حيث بنى الفعل على المبتدأ فدل على الخصوصية، وجمع ضمير

المتكلم فأذن بعظم الربوبية..." (24) وإفادة التخصيص إنما جاءت من التركيب فإن ضمير المبتدأ (نا) وهو اسم (إنّ) في الجملة، هو المسند إليه والفاعل (نا) ضمير العظمة في جملة (أَعْطَيْنَاكَ) هو المسند إليه فوقع الإسناد مرتين، فأفاد تقوية الحكم، وحيث إن الفعل (أَعْطَى) جاء مسنداً لضمير المبتدأ مع قصد إفادة التخصيص، أفاده ذلك لأن تقوية الحكم موجود في النظم لوجود الإسناد مرتين.

وهذا التعبير يُعدُّ من روائع بدائع لفتات أبي القاسم رحمه الله تعالى الذي كان يتذوق البلاغة فبلغ بذلك درجة منيفة في التفسير والبيان، جعلته أستاذ التفسير البياني رحمه الله تعالى.

وأما (الْكَوْثَر) فاختلفت فيه أنظار أساطين أهل التفسير بالمنقول والمعقول، وتعددت أقوالهم، وتباينت آراؤهم، قال أبو حيان: "وذكر في التحرير– أي شيخه ابن النقيب– في الكوثر ستة وعشرين قولاً، والصحيح هو ما فسر به رسول الله ε فقال: هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح"(25).

وإذا أمعنت النظر في الأحاديث الصحيحة الصريحة التي فسرت الكوثر، ونظم آية (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) وما في لفظة (الْكَوْثَرَ) من دلالات لغوية، أدركت أن الكوثر يصح أن يكون علَماً،ووصفا، وهو ما ينبغي أن يفسر به للجمع بين الرواية والدراية.

قال الإمام البيضاوي: "(الْكَوْثَرَ): الخير المفرط الكثرة من العلم والعمل وشرف الدارين" قال الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي: "(الكوثر: الخير...): وزنه فوعل وهو يكون اسما كجوهر، وصفة ككوثر وصيغة للمبالغةوموصوفه مقدر وهو الخير كما ذكره المصنف– أي البيضاوي– رحمه الله تعالى(26).

لله در الشهاب فقد أضاء سماء تفسير كلمة (الْكَوْثَر) بهذا التوجيه السديد الرشيد الذي جمع فيه بين المنقول والمعقول.

وها أنا أذكر تاليا بعض الأحاديث الصحيحة في تفسير الكوثر بأنه نهر في الجنة، ثم أذكر ما ذهب إليه أهل التأويل.

روى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت في تفسير قوله تعالى (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ): "هو نهر أعطيه نبيكم ε شاطئاه عليه در مجوف آنيته كعدد النجوم"(27) وروى البخاري بسنده عن أنس τ، قال: "لما عرج بالنبي ε إلى السماء قال: أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوّف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر"(28) وفي صحيح البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس – رضي الله عنهما–، أنه قال لي: الكوثر هو الخير الذي أعطاه الله إيّاه، قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن الناس يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إيّاه"(29).

قال الحافظ في الفتح:" هذا تأويل من سعيد بن جبير جمع بين حديثي عائشة وابن عباس..." ثم قال الحافظ: "وحاصل ما قاله سعيد بن جبير أن قول ابن عباس إنه الخير الكثير لا يخالف غيره إن المراد به نهر في الجنة، لأن النهر فرد من أفراد الخير الكثير، ولعل سعيدا أومأ إلى أن تأويل ابن عباس أولى لعمومه" وقد رجح الحافظ القول بأنه نهر في الجنة فقال:" لكن ثبت تخصيصه بالنهر من لفظ النبي ε فلا معدل عنه"(30).

هذا المعنى إذا جعلنا الكوثر علما، فيكون معناه نهر في الجنة. وهو ما رجحه الإمام الطبري في تفسيره(31).

أما القول بأنه صفة، فلا بد أن يكون صفة لموصوف محذوف وهو ما جزم به الإمام الزمخشري في رسالة سورة الكوثر أخذا من ظاهر النظم:" وجاء

بالكوثر محذوف الموصوف؛ لأن المثبت ليس فيه ما في المحذوف من فرط الإبهام والشياع، والتناول على طريق الاتساع، واختار الصفة المؤذنة بإفراط الكثرة، المترجمة عن المعطيات الدثرة، ثم بهذه الصفة مصدّرة بلام المعرفة، لتكون لما يوصف بها شاملة، وفي إعطاء معنى الكثرة كاملة"(32).

إنك لتهز عطفيك إذا تأملت ما دبجه يراع الإمام الزمخشري رحمه الله تعالى، وإن كان كلامه بحاجة إلى إيضاح، أقول بين يديه: إن الزمخشري مولع بالحذف، لما في الحذف من بلاغة وجزالة، ولتذهب النفس كل مذهب في التقدير. وفي ذلك دلالة على عظمة إعجاز القرآن، وما في أعطافه من روائع البيان.

وهنا لم يقدر الإمام الزمخشري - رحمه الله تعالى –الموصوف، لأن كلمة (**الْكَوْثَر**) صفة، وبناؤها يدل على المبالغة، وقد جاءت معرفة، فلا بد أن يكون بين الصفة المذكورة، والموصوف المحذوف وشائج وعلائق لأن الصفة تتبع الموصوف، وبناء عليه فإن حذف الموصوف يفيد الاتساع والشمول أكثر مما لو جاء في الآية مثبتا، لذلك لم يذكر القرآن الموصوف لما في حذفه من بلاغة بالغة، وجزالة جزلة، وهو ما ألمع إليه العلامة الزمخشري في كلامه.

والراجح عندي حمل معنى (**الْكَوْثَر**) على الإطلاق، لينسجم حذف الموصوف وما يحمله من براعة في الأسلوب على القول بأن الكوثر صفة مع السياق. وكذلك لينسجم (**الْكَوْثَر**) العلم على أنه النهر المعروف في الجنة مع سياق الآية أيضا، وليكون (**الْكَوْثَر**) صفة وعلما، يجمع بين الخير الدنيوي والأخروي لرسول الله ε. وإذا كان ذلك كذلك، فإن كلمة (**الْكَوْثَر**) التي تدل بمادتها وصيغتها وحذف موصوفها على الكثرة الكاثرة– هي الكلمة الوحيدة الفريدة في القرآن كله– قد أفادت أن الله تعالى قد أعطى نبيه ε خيري الدنيا والآخرة.

أما خير الدنيا فكثير لا يتسع الم قلم لذكره، وإنما أذكر من هذا الخير الكوثر كثرة المسلمين في المعمورة الذين تلهج ألسنتهم بالصلاة والسلام عليه ε وهم من الخير الذي أوتيه ε في الحياة الدنيا بأن يكون أبا للمؤمنين منذ نزول (**اقرأ**) حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ولن تجد في الأولين ولا في الآخرين ولا في الزمن بينهما من استأهل هذه الدرجة المنيفة التي نالها صاحب المقام المحمود ε.

تأمل- رعاك الله – في خريطة العالم تجد أن اسمه ε يذكر في كل لحظة مقرونا باسم الله Y في نداء الصلاة، فضلا عن ذكره ε بمختلف الألسن واللغات، تصديقا لقوله تعالى**[وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ]** [4: الشرح]دون غيرك من الخلائق على مر الدهور وكر العصور.

أما ما وعده ربّه من خير الآخرة، ومنه نهر الكوثر فالقلم عاجز عن رصف المباني لإظهار المعاني، والعجز عن التعبير تعبير. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

المبحث الثالث

قوله تعالى: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)

هذه الآية الكريمة مؤلفة من جملتين إنشائيتين ترتبطان بواو النسق لما بينهما من الاشتراك والتغاير. ولبيان أسرار إعجاز هذه الآية الفذة سأعرض لأسرار النظم في الجملة الأولى ثم الجملة الثانية وأختم الكلام بإظهار بلاغة الوصل في الآية وأقوال أهل التأويل في تفسيرها.

أولا: جملة (فَصَلِّ لِرَبِّكَ)

بدئت هذه الجملة الإنشائية بفعل الأمر (**فَصَلِّ**) الذي اقترن بفاء التعقيب والتسبب، قال الإمام الزمخشري في رسالة إعجاز سورة الكوثر بعد بيان الإعجاز في (**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**) قال رحمه الله تعالى: "وعقب ذلك بفاء التعقيب، مستعارة لمعنى التسبيب" (33)

.

وقال السمين الحلبي في الدر المصون: "قوله **(فَصَلِّ)** الفاء للتعقيب والتسبب، أي بسبب هذه المنة العظيمة أمرك بالتخلي لعبادة المنعم عليك، وقصدك إليه بالنحر..."(34) ويرى العلامة ابن هشام أن معنى السببية في هذه الفاء هو الواجب، قال رحمه الله تعالى في سياق كلامه عن معنى الفاء في مغني اللبيب: "وتأتي الفاء للسببية المحضة..." ثم قال:" ويجب عندي أن يحمل على ذلك مثل **(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)**(35).

وهذا المعنى هو الذي يناسب السياق ومن قال إنها الفاء الفصيحة فقد وهم، ذلك لأن هذه الفاء بمنزلة الفريدة من حبلت العِقد تدل على بلاغة النظم، فقد جاءت في موضعها اللائق بها. قال شيخ زادة في حاشيته على البيضاوي:"لما ذكر رسول الله ε وما أنعم به عليه من الخير الكثير أمره أن يشكر تلك النعمة العظيمة فقال **(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)** بفاء التعقيب المؤذنة بالسببية أي إذا تقرر عندك ما فضلت به من الكوثر فدم على الصلاة الجامعة لنوع العبادة..." (36).

ولك أن تسأل عن سر التعبير بقوله **(فَصَلِّ)** في هذه الآية دون أن يأمره بإقامة الصلاة نحو **(أقم الصلاة)**؟

والجواب: أن المخاطب بفعل الأمر **(فَصَلِّ)** هو رسول الله ε خاصة دون بقية أمته، ذلك لأن معنى "إقامة الصلاة توفية حدودها وإدامتها ، وتخصيص الإقامة تنبيه أنه لم يُرد إيقاعها فقط، ولهذا لم ي أمر بالصلاة، ولم يمدح بها إلا بلفظ الإقامة..." (37) والمعنى المراد من الإقامة محقق حقا في صلاته ε، لذلك لم يأت فعل **(فَصَلِّ)** بمعنى الصلاة المعروفة إلا في هذه الآية الكريمة فقط، بيانا لرفعة مكانته ε عند ربه تبارك وتعالى.

ولك أن تعجب من روعة الإعجاز في هذه الجملة القرآنية أن الأمر بالصلاة قد تعلق به الجار والمجرور **(لِرَبِّكَ)**, لما في لفظ **(رَبِّكَ)** من المعاني التربوية الرائعة التي تعجز الألسنة عن وصفها، والأقلام عن تسطيرها.

نعم **(فَصَلِّ لِرَبِّكَ)** إنه الأمر بالتوحيد الخالص، والعبادة الخالصة التي أُمر ε أن يؤديها لمن أنعم عليه بالخيرات في الدنيا والآخرة.

ومن لطائف الإعجاز أن هذه الجملة **(فَصَلِّ لِرَبِّكَ)** هي الجملة القرآنية الوحيدة في نظم القرآن الكريم وآياته، كما أن سورة الكوثر هي السورة الوحيدة المختصة به ε.

وأما سر التعبير بقوله **(لِرَبِّكَ)** دون فصّل لنا فيجيب عنه علامة البيان الإمام الزمخشري قال رحمه الله تعالى:" وقال **(لِرَبِّكَ)** وفيه حسنان، وروده على طريقة الالتفات، التي هي أم من الأمهات، وصرف الكلام عن لفظ المضمر إلى لفظ المظهر، وفيه إظهار لكبرياء شأنه، وإنافة لعزّة سلطانه..." (38).

ثانيا: جملة (وَانْحَرْ)

اقترنت هذه الجملة الإنشائية بأختها **(فَصَلِّ لِرَبِّكَ)** بواو النسق دلالة على الوصل لما بين الجملتين من اتصال وثيق وارتباط وطيد. فإن المأمور في الجملتين هو رسول الله ε والتغاير إنما يتأتى من نوع العبادة التي أُمر ε القيام بها لما بين عبادتي الصلاة والنحر من اشتراك في العبادة وتغاير في الصورة، هذا أولا.

أما ثانيا: فإن الصلاة عبادة بدنية تربط المخلوق بالخالق والعبد بربه I. وأما النحر فعبادة مالية تربط العبد بأخيه إرضاء لله I وتقربا إليه سبحانه **(لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُم)**[37: الحج].

ولئن جاءت الآيات التي تأمر بإقامة الصلاة مقترنة بإيتاء الزكاة كقوله تعالى **(وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ)**[43: البقرة] فإن هذه الآية هي الآية الوحيدة التي وردت فيها لفظة **(وَانْحَرْ)** ولن تجد في القرآن الكريم إلا هذه الكلمة وكأنها اختصت به ε دون

بقية الخلق دلالة على كرمه وجوده ε الذي كان أجود من الريح المرسلة.

فإن قلت: ما سر التعبير بـ (**وَانْحَرْ**) دون غيرها من الألفاظ؟

قلت: لقد اختيرت كلمة النحر دون الذبح أو غيره من الألفاظ الدالة على ذلك لما في هذه الكلمة من دلالات على الكرم ذلكم لأن النحر إنما يكون للإبل وهي خيار أموال العرب وكرائم أنعامهم، ومن تقرب إلى الله تعالى بنحر الإبل كان ذبحه وتقربه بما دون الإبل كالبقر والغنم والمعز أسهل وأيسر على النفس.

هذا، وقد رويت في معنى (**النحر**) أقوال كثيرة ارتأيت اعتماد معنى نحر الإبل مراعاة لنظم السياق، وما جاء في تفسيرها من المأثور عن السلف الصالح ψ.

ومن بديع نظم جملة (**وَانْحَرْ**) حذف المتعلق من السياق لدلالة متعلق (**فَصَلِّ لِرَبِّكَ**) عليه. قال ابن عاشور:"وَعَطْفُ (**وَانْحَرْ**) على (**فَصَلِّ لِرَبِّكَ**) يقتضي تقدير متعلقه مماثلاً لمتعلق (**فَصَلِّ لِرَبِّكَ**) لدلالة ما قبله عليه كما في قوله تعالى: (**أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ**) [38: مريم] أي وأبصر بهم، فالتقدير: وانحر له" هكذا قدره العلامة ابن عاشور، والأحسن أن يقول وانحر لربك لأن ابن عاشور نفسه قد قال:" والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر في قوله (**فَصَلِّ لِرَبِّكَ**): دون فصلِّ لنا، لما في لفظ الرب من الإيماء إلى استحقاقه العبادة لأجل ربوبيته فضلا عن فرط إنعامه" (39) ولذلك كان من المناسب أن يقدر لربك وليس (**له**) مراعاة لما قدره في استدلاله بآية (**أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرِ**) أي وأبصر بهم، وكذلك هنا كان ينبغي أن يقول في التقدير: وانحر لربك.

بعد بيان ما في جملتي الآية الكريمة من بيان رائع، وإعجاز ماتع، يطيب لي أن اعرض لأسرار الإعجاز في نظم الآية . إنّ المتأمل في نظم آية (**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانحر**) يجد ألفاظها مختارة منتقاة، وقد امتازت على الآية الأولى (**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَر**) والثالثة (**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**) بأنها الآية الوحيدة بين أمرين عظيمين لأداء عبادتين تدلان على القرب من الله Y وهما: الصلاة والنحر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في معرض كلامه عن هاتين العبادتين:"فإن الصلاة والنحر محفوفتان بإنعام قبلهما، وإنعام بعدهما، وأجل العبادات المالية النحر، وأجل العبادات البدنية الصلاة"(40).

وقد أطنب الإمام أبو جعفر النحاس في بيان الآية وذكر في قوله تعالى (**وَانْحَر**) عدة أقوال، منها:

الأول: وضع اليمين على الشمال.

الثاني: ارفع يدك نحو نحرك إذا كبرت للإحرام.

الثالث: عن أنس بن مالك كان النبي ε: "ينحر ثم يصلي حتى نزلت (**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**) فصار يصلي ثم ينحر"(41).

الرابع: عليه أكثر التابعين، أي صلِّ العيد وانحر البدن، وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وبعض أهل النظر يميل إليه لأنه ظاهر المعنى، أي انحر البدن ولا تذبحها، وبعض الفقهاء يرده؛ لأن صلاة العيد ليست بفرض عند أحد من المسلمين، والضحية ليست بواجبة عند أكثر العلماء..."(42).

ثم قال أبو جعفر النحاس:" وفي الآية قول سابع، وهو أبينها وهو مذهب محمد بن كعب، قال: اخلص صلاتك لله وانحر له وحده"، قال أبو جعفر: "وهو قول حسن؛ لأن الله جل وعز عرفه ما أكرمه به، وأعطاه إيّاه فأمره أن يشكره على ذلك..." (43) وما رجحه أبو جعفر النحاس يتفق مع السياق، وكثير من الأقوال التي قيلت يأباها النظم لغرابة معناها، أو لضعف رواتها.

أما القاضي ابن العربي المالكي رحمه الله تعالى فقال في تأويل الآية:"... والذي عندي أنه أراد: اعبد ربك وانحر له، ولا يكن عملك إلا لمن خصك بالكوثر، وبالحري أن يكون جميع العمل يوازي هذه

الخصيصة من الكوثر، وهو الخير الكثير الذي أعطاك الله إياه، أو النهر الذي طينته مسك، وعدد آنيته عدد نجوم السماء. أما أن يوازي هذا صلاة يوم النحر، وذبح كبش أو بقرة أو بدنة فذلك بعيد في التقدير، وموازنة الثواب للعباد..." (44)

لقد أبدع القاضي ابن العربي في ا لاستكناه والاستنطاق وجاء كلامه ناطقا ببراعته في فهم نظم الآية الكريمة، لأن هذه السورة نزلت في الحديبية في الراجح من الأقوال في تاريخ نزولها، وفي الحديبية كان التحلل من الإحرام بسبب الاحصار و لم يكن ثمة عيد نحر حتى تكون صلاة، والنحر إنما كان للتحلل بما ساق ε من الهدي، وكان توجهه ε إلى الحديبية في ذي القعدة، قال الحافظ في الفتح: "كان توجهه ε من المدينة يوم الاثنين مستهل ذي القعدة سنة ست فخرج قاصدا إلى العمرة فصدّه المشركون عن الوصول إلى البيت، ووقعت بينهم المصالحة على أن يدخل مكة في العام المقبل.

وجاء عن هشام بن عروة عن أبيه انه خرج في رمضان واعتمر في شوال وشذ بذلك..." (45) وما تعارف عليه الناس، وذكره بعض أهل العلم في مؤلفاتهم ومصنفاتهم بأن الآية معناها فصل صلاة عيد النحر وانحر الأضاحي لا يتلاءم ولا ينسجم مع نظم الآية وجزالة ألفاظها، بأن يقصر معنى الآية على هذا القول على الرغم من ضعفه ومخالفته للمنقول والمعقول، قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى:" والتحقيق أن المقصود صلاة العيد، تذبح الأضاحي بعد الصلاة، وتقسم على الفقراء، والتضحية كما تكون بالغنم تكون بالبدن"(46).

ويرى الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس أن "الآية الكريمة لا تعني صلاة العيد يقينا، لأنها إن نزلت في مكة فليس ثم صلاة عيد، وإن كانت مدنية فقد نزلت في الحديبية وليس ثمة صلاة عيد آنذاك، وما اشتهر عند كثيرين من أن قوله سبحانه: **(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)**[14-15: الأعلى] في سورة الأعلى نزلت في زكاة الفطر وصلاة عيده وأن قوله **(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)** نزلت في صلاة عيد الأضحى والأضحية قول لا يصح ألبتة"(47).

وقد أوجز العلامة صديق حسن خان في كتابه نيل المرام في تفسير آيات الأحكام القول – قال رحمه الله تعالى-:" وظاهر الآية الأمر له ε بمطلق الصلاة ومطلق النحر وأن يجعلهما لله Y لا لغيره"(48).

وخلاصة الكلام في تأويل الآية الكريمة:أن الله Y أمر نبيه ε بأمرين هما: الصلاة والنحر، أما الصلاة فتحمل على إطلاقها أخذا من حذف مفعول **(فَصَلِّ)** لتذهب النفس كل مذهب، ولتكون هذه الصلاة التي كانت قرة عينهε خالصة لربك وحده لا شريك له.

وكذلك حذف مفعول **(وَانْحَرْ)** لينحر ويذبح الإبل والبقر والغنم في الحج والعيد وكل مناسبة إطعاما للفقراء والمحتاجين تقربا لله Y وحده.

هذا المعنى هو المناسب للسياق، واللائق في حقه ε الذي خصّه ربّه سبحانه بالخير الكوثر، وجعل هذه السورة له وحده ε في خبرها وإنشائها، وجزالة نظمها النظيم، فلله در الإعجاز ما أعظمه!!

تلكم آية **(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)** وما في كيانها من أحكام حكيمة، وحكم رائعة، اذا تأملها أولو الألباب علموا وأيقنوا أنها آية في الإيجاز والإعجاز لما تحمله في مضامينها من أسرار قرآنية بارعة.

المبحث الرابع

قوله تعالى: (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)

هذه الآية هي خاتمة آيات سورة الكوثر جاءت باسلوب الاستئناف ولذلك" أوردها مفصولة غير موصولة بالعطف على ما قبلها؛ لأنها جواب عن سؤال تقديره: وماذا تكون عاقبة شانئه ومبغضه..." فأجاب **(إِنَّ شَانِئَكَ)** أي مبغضك...**(هُوَ الأَبْتَرُ)** من دونك..."(49) هذه بلاغة الفصل بين الآية والتي قبلها،

أما اسرار الإعجاز في نظم الآية فكثيرة منها: أن هذه الآية فيها "أنواع من التأكيد:

أحدهما: تصدير الجملة بـ (**إنَّ**).

الثاني: الإتيان بضمير الفصل الدال على قوة الإسناد والاختصاص.

الثالث: مجيء الخبر على أفعل التفضيل دون اسم المفعول.

الرابع: تعريفه باللام الدالة على حصول هذا الموصوف له بتمامه، وأنه أحق به من غيره" (50) هذا ما دبجه يراع شيخ الاسلام ابن تيمية دون تفصيل وبيان للمعاني المترتبة على هذه المؤكدات.

ومن أنواع التأكيد كذلك تعريف طرفي الإسناد: أعني المسند إليه (**شَانِئَكَ**) والمسند (**الأَبْتَرُ**) فضلا عن مجيء ضمير الفصل (**هُو**) بين المسند إليه والمسند. قال ابن السبكي : "المراد بالفصل: فصل المبتدأمن الخبر بضمير الفصل... والفصل هو صورة ضمير واقع بين المبتدأ والخبر... ويسميه الكوفيون (عمادا) وبعضهم يسميه دعامة، والبصريون فصلا، والمنطقيون رابطة، وله أحكام يطول ذكرها"(51).

ولضمير الفصل اعرابان: إما أن نقول هو ضمير فصل لا محل له من الاعراب، أو مبتدأ ثان وما بعده خبره، والجملة خبر المبتدأ الأول. قال ابن السبكي: "واعلم أن الفصل اتفق جمهور النحاة على أنه حرف لا اسم، والقائلون بأنه اسم، أكثرهم على أنه لا محل له من الإعراب، والقائلون بأن له محلا، منهم الكسائي قال: إن محله باعتبار ما قبله..." (52) .

ولضمير الفصل ثلاث فوائد:

أولاها: التوكيد، ثانيها:التخصيص، وثالثها: كون ما بعده خبرا لا صفة.

وهذه الفوائد اعتمدها المحققون من أهل البيان وساروا في ضوئها. واذا تأملت الفاظ الآية الكريمة بدءا من (**شَانِئَكَ**) وجدت (**شَانِئَكَ**) هي العبارة الوحيدة في القرآن بصيغة اسم الفاعل، من شنيء، وكذلك عبارة (**الْأَبْتَرُ**) على وزن أفعل التفضيل فإذا علمت هذه البدائع وضممت اليها تصدير الجملة ب ــ (**إنَّ**) المؤكدة، وضمير الفصل وما يحمله من رسالة بيانية أدركت ما في هذه الآية من بلاغة بالغة كامنة في كيانها من وعد ببتر اعداء رسول الله ε، وأعداء دينه الحق دين الاسلام، لأن مَنْ يحارب هذا الدين إنما يحارب الله جل وعز لأن الله قال- وهو أصدق القائلين- (**إنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ**)[19: آل عمران] فمن أبغض الإسلام إنما أبغض الله سبحانه وأبغض رسوله ε، ولذلك ناسب مجيء هذه المؤكدات في هذه الآية الفذة الدالة على بتر المبغضين الشانئين.

وهذه الآية تفيد الحصر أي نفي البتر عن رسول الله ε واثباته للشانيء المبغض كائنا مَنْ كان، وهو معنى فيه زيادة على الاختصاص، وقد دلّ عليه نظم الآية الكريمة.

قال أبوالسعود في تفسير الآية: "(**إِنَّ شَانِئَكَ**): أي مبغضك كائنا مَنْ كان (**هُوَ الأَبْتَرُ**) الذي لا عقب له حيث لا يبقى منه نسل ولا حسن ذكر، وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة ولك في الآخرة ما لا يندرج تحت البيان، وقيل نزلت في العاص بن وائل، وأيا ما كان فلا ريب في عموم الحكم..." (53).

واذا أمعنت النظر في خبر (**إنَّ**) في هذه الآية الكريمة وهو (**هُوَ الأَبْتَرُ**) وجدته اسما، والجملة الاسمية التي يكون فيها المسند اسما تدل على الثبوت وهي بشارة لنا بأن سنة الله تعالى في بتر المبغضين لرسول الله ε ولدينه الحق ثابتة مهما طال الليل وأرخى سدوله.

وأما الآية الأولى (**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**) فجاء المسند فعلاً ماضياً، وصيغة الفعل تدل على تحقق الوقوع كما هو معلوم في علم المعاني، وذلك لأن إعطاء الخير الكوثر حاصل لرسول الله ε حتى يسجد

تحت العرش وعندها يفتح الله عزوجل عليه بأسماء لله تبارك وتعالى لم يكن قد عرفها من قبلُ.

ولا بد من الاشارة إلى أقوال المفسرين في تفسير الآية وقصر المعنى على العاص بن وائل وغيره من كفار قريش لا يتفق ونظم الآية الكريمة، وهو ما عرضت له تفصيلا في مبحث المناقشة والترجيح، ولا بأس أن أشير هنا إلى أن تفسير الآية ببتر الشانئين على الاطلاق هو الذي يليق بالسياق، وأما القول بقطع النسل والعقب ففيه محاذير عرضت لها آنفا أيضا.

وقد أسهب الامام الرازي في تفسير السورة، وجاء بأقوال كثيرة لا تخلو من التكلف (54)، وكذلك الامام البقاعي(55) بعد عرضه لتفسيرها أتى بلطائف فيها من الإفراط ما لا يخفى على الألباء، لذلك أعرضت عن مثل هذه التمحلات، وأكتفيت بما يعضده السياق ويشهد له النظم.

وقد ختم علامة البيان، واستاذ المفسرين الامام الزمخشري رسالته في اعجاز سورة الكوثر بجمل من القول الجزل، أرى من الواجب أن أذكره ا لما فيها من دقة الايجاز بما يتفق وابراز الإعجاز في السورة الكريمة، قال رحمه الله تعالى وأنزل على قبره شأبيب الرحمة والرضوان: "... فسبحان مَنْ لو أنزل الواحدة وحدها، ولم ينزل ما قبلها وما بعدها، لكفي بها آية تغمر الأذهان، ومعجزة توجب الإذعان، فكيف بما أنزل من السبع الطوال، وما وراءها إلى المفصّل، والمفصل، يا لها من معجزة كم معجزات في طيّها، عند كل ثلاث آيات تقر الألسن بعيّها، لو أراد الثقلان تسلية المغيظ المحنق، لأخذت من أفاصحهم بالمحنق، إن همّوا بانشاء سورة توازيها، وثلاث آيات تدانيها، هيهات قبل ذلك يشيب الغراب، ويسيب الماء كالسراب"(56) ثم كرّ العلامة الزمخشري على شيخ الاعتزال في عصره، النظام القائل بالصرفة فقال:" ودع عنك حديث الصرفة فما الصرفة الا صُفْرة –أي جنون– من النظام، وَفهّة – أي زلة– منه في الاسلام..." ثم بين مدى حزنه على علم البلاغة فقال:"... ثم أدرج هذا العلم تحت طيّ النسيان، كما يدرج الميت في الأكفان".

وأخيراً ختم رسالته البديعة بالدعاء كعادة علمائنا الأجلاء فقال رحمه الله تعالى:"...واللهَ أسأل أن يهديني سبل الاصابة، ويثبتني على ذلك أحسن إثابة، فما نويت بما لقيت فيه من عرق الجبين، الاّ التوصل إلى ما فيه من ثلج اليقين، والاّ استبانة حجة الله وبرهانه، واستيضاح أنوار قرآنه، وأن يوفقني للخير وطلبه، وأن ينظمني في زمرة أهله ويختم لي به"(57).

رحم الله الامام الزمخشري فقد كان غيورا على دينه، حريصا على اظهار أسرار إعجاز القرآن، وما كتابه الكشاف الذي هو بحق كالشافي في ابراز المكنون الكامن في أعطاف آيات القرآن الكريم الا الدليل الواضح والبرهان الساطع على دفاعه عن حياض القرآن وقدسيته.

هذه السورة الكريمة البديعة الفذة حريٌّ بنا أن نحفظ ألفاظها ومعانيها، وأن نجعلها في سويداء قلوبنا حبا لله تعالى ولكتابه العظيم ولرسوله الأمين ε، لما فيها من الخصوصية لرسوله ε من جهة العطاء والأمر بالصلاة والنحر، وبتر مبغضيه، وما فيها من وعد لنا بأن الشانئين لهذا الدين هم المقهورون المبتورون من الخير، وأن الاسلام باقٍ لأنه دين الله في الارض و في السماء.

وعلى الألباء من مختلف المستويات والطبقات أن يتدبروا نظم هذه الآية وما فيها من مؤكدات من تعريف طرفي الإسناد، ومجيء ضمير الفصل بين المسند إليه والمسند، وعندها يوقن أهل الفطانة والزكانة بأن المبغضين لرسول الله ε، المبغضين لدين الإسلام، هم المبتورون وإن ظنوا أنهم قاهرون، قادرون ذلكم لأن الليل لا بد أن ينسلخ، والفجر آت لا محالة، أخذاً من نظم هذه الآية التي حملت في

مضامينها الوعد والوعيد، الوعد لرسول الله ε أصالة ولمن اتبع هديه تبعاً، والوعيد لمبغضيه وشانئيه في عصره، ولمن سلك سبيلهم ممن جاءوا بعدهم، ولبسوا لبوس اللين والسماحة، وهم قد مكروا مكراً كبّاراً.

والحق أنّ كل منْ أمعن النظر في الآيات الثلاث يدرك أنها جاءت متعانقة متآخية يأخذ بعضها بحجز بعض، وأنه ما بلغ البلغاء مبلغ الايجاز والإعجاز في سورة الكوثر.

واللهَ أسألُ أن يرحمنا وينصرنا ويحشرنا مع سيدنا محمد ε في جنات النعيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الخاتمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَنْ لا نبي بعده، وبعد:

فهذه سورة الكوثر، سورة الإيجاز والإعجاز، فيها من علو المباني، وسمو المعاني ما يبهر ألباب العلماء الألباء، ويأخذ بمجامع قلوب العباد الأتقياء، لقد اعجزت الإنس والجن أن يأتوا بمثلها، وكاعوا عن معارضتها من لدن نزولها على قلب رسول الله ε حتى يومنا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وأرى من المناسب والمفيد أن أذكر تالياً أبرز نتائج هذه الدراسة المتواضعة:

أولاً: امتازت سورة الكوثر بألفاظ قرآنية لن تجدها إلاّ فيها مثل **(الْكَوْثَر) (فَصَلِّ لِرَبِّكَ) (وَانْحَرْ) (شَانِئَكَ) (الْأَبْتَرُ)** فضلاً عن بنية هذه الكلمات وما تحمله من دلالات.

ثانيًا: سورة الكوثر تحمل رسالة الإعجاز والتحدي تحز غلاصم الناعقين المفترين، أتباع شيطان اليمامة مسيلمة الكذاب في كل عصر ومصر، وزمان ومكان، على الرغم من شدة خُبثهم وكثرة خَبثهم.

ثالثًا: سورة الكوثر تنير لنا السبيل، وتؤكد لنا قرب طلوع الفجر الصادق، ببتر أعداء رسول الله ε واعداء دين الحق،**(إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)** على الرغم من تكبرهم على العباد، وإفسادهم في البلاد.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

المصادر والمراجع

- **البخاري**: محمد بن إسماعيل، **الجامع الصحيح مع شرح فتح الباري**، دار السلام، الرياض، 2000م.
- **البقاعي**: أبو الحسن إبراهيم بن عمر، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، مراقبة د. محمد عبد المعين- الهند – ط1 /1393هـ.
- **ابن تيمية**: تقي الدين أحمد بن عبدالحليم، **التفسير الكبير**، تحقيق: د.عبد الرحمن عميرة، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **حبنكة**: عبد الرحمن، **معارج التفكر ودقائق التدبر** ، دار القلم، ط1، 2000م.
- **ابن حجر**: أحمد بن علي، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، دار السلام، الرياض، 2000م.
- **أبو حيان**: محمد بن يوسف، **البحر المحيط** ، دار الفكر، بيروت، ط2، 1983م.
- **خان**: محمد صديق، **نيل المرام في تفسير آيات الأحكام**، دار الرائد العربي، بيروت، 1983م.
- **الرازي**: فخر الدين محمد بن عمر، **التفسير الكبير، أو مفاتيح الغيب** ، دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان، ط1، 1990م.
- **الراغب**: أبو القاسم الحسين بن محمد، **مقدمة جامع التفاسير**، حققه: د.أحمد حسن فرحات، دار الدعوة، ط1، 1984.

- **رضا**: محمد رشيد، **تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن**، الزهراء 1988م.
- **زادة**: محيي الدين شيخ، محمد بن مصلح الدين، **حاشية على البيضاوي**، ضبطه: محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999م.
- **ابن الزبير**: أبو جعفر، **البرهان في ترتيب سور القرآن**، دراسة وتحقيق: محمد شعباني، 1990م. منشورات وزارة الأوقاف بالمغرب.
- **الزركشي**: بدر الدين محمد بن بهادر الشافعي، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، ط2، 1972م.
- **الزمخشري**: أبو القاسم محمود بن عمر، **رسالة في إعجاز سورة الكوثر**، منشورات مجلة تراثنا، العدد الرابع 1408هـ، بيروت، لبنان.
- **سبحاني**: محمد عناية الله، الدكتور، **إمعان النظر في تناسب الآيات والسور** ، دار عمار، عمان، ط 1، 2003م.
- **السبكي**: **جمع الجوامع مع شرح المحلي وعليه حاشية البناني**، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1998م.
- **أبو السعود**: محمد بن محمد العمادي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، وضع حواشيه: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1، 1996م.
- **السمين الحلبي**: أبو العباس بن يوسف، **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون** تحقيق: علي محمد معوض ورفيقه، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **السيوطي**: جلال الدين، عبد الرحمن، **الإتقان في علوم القرآن**، تقديم وتعليق: د. مصطفى البغا، دار ابن كثير، دمشق، ط3، 1996م.
- **تناسق الدرر في تناسب السور** ، تحقيق: عبد الله الدرويش، عالم الكتب، ط2، 1987م.
- **الشهاب الخفاجي**: أحمد بن محمد بن عمر، **حاشية على البيضاوي**، ضبط: عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- **الصاوي**: أحمد، حاشية على الجلالين، إشراف: صدقي العطار، دار الفكر، بيروت، ط1، 1988م.
- **الطبري**: محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ضبط: صدقي العطار، دار الفكر ، بيروت– لبنان، د.ت.
- **ابن عاشور**: محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، الدار التونسية، 1984م.
- **عباس**: فضل حسن,الدكتور, إتقان البرهان في علوم القرآن، دار الفرقان– الأردن، ط1, 1997م.
- **ابن العربي**: محمد بن عبد الله، **أحكام القرآن** ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988م.
- **الغزالي**: الشيخ محمد، **نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم** ، دار الشروق ، القاهرة، ط 4، 2000م.
- **الفيروزآبادي**: مجد الدي محمد بن يعقوب، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، د. ت.
- **النحاس**: أبو جعفر أحمد بن محمد، **إعراب القرآن**، تحقيق: زهير غازي زاهد، عالم الكتب ، مكتبة النهضة، ط3.
- **ابن هشام**: عبدالله بن يوسف، **مغني اللبيب من كتب الأعاريب**، قدم له: حسن حمد، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1، 1998م.
- **اليوسي**: أبو المواهب، الحسن بن مسعود، **البدور اللوامع في شرح جمع الجوامع**، تقديم وفهرسة وتحقيق: حميد حماني اليوسي، مطبعة دار الفرقان للنشر الحديث، الدار البيضاء، ط1، 2003م.

الهوامش:

---

(1) **تفسير ابن عاشور**، ج30، ص571.

(2) **صحيح البخاري**، متن الفتح، ج8، ص934.

(3) **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، باب1، حديث رقم 4964، 934/8.

(4) البقاعي، **نظم الدرر**، ج22، ص287.

(5) **حاشية الشهاب على البيضاوي**، ج9، ص577.

(6) **الإتقان للسيوطي**، ج1، ص176.

(7) **بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي**، ج1، ص547.

(8) **تفسير ابن عاشور**، ج30، ص572.

(9) انظر: **البرهان للزركشي** ، ج1، ص193, **والإتقان للسيوطي**، ج1، ص42, **وإتقان البرهان لعباس**، ج1، ص401.

(10) **بصائر ذوي التمييز للفيروزابادي**، ج1، ص547.

(11) **تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن**، رشيد رضا، ص11.

(12) **نظم الدرر، للبقاعي**، ج22، ص287.

(13) **تفسير الرازي** ، ج32، ص110، وانظر: **البحر المحيط لأبي حيان** ، ج8، ص519، **وتناسق الدرر للسيوطي**، ص182.

(14) **البرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير** ، ص379-380.

(15) **إمعان النظر لسبحاني** ، ص139. نقلا عن: **تفسير سورة الكوثر للفراهي**، ص3.

(16) المرجع السابق، ص139- 140.

(17) هذه السور المكية هي (الطور, ويونس, وهود, والإسراء) وآياتها:(أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَيُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ)[33-34، الطور]، (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)[13: هود]، (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)[38: يونس]، (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)[88: الاسراء].

(18) **جمع الجوامع لابن السبكي وعليه شرح المحلي** ، ج1، ص357.

(19) **شرح المحلي على جمع الجوامع مع حاشية البناني**، ج1، ص361.

(20) **البدور اللوامع شرح جمع الجوامع لليوسي** ، ج3، ص8.

(21) **معارج التفكر ودقائق التدبر**، عبد الرحمن حسن حبنكة، ج1، ص655.

(22) **حاشية الصاوي على الجلالين**، ج6، ص2435.

(23) **حاشية الصاوي على الجلالين**، ج6، ص2435.

(24) رسالة الزمخشري، ص234.

(25) تفسير البحر المحيط لأبي حيان، 519/8.

(26) حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي، 577/9.

(27) **صحيح البخاري** (متن الفتح)، حديث رقم 4965.

(28) **صحيح البخاري** (متن الفتح)، حديث رقم 4965.

(29) **صحيح البخاري** (متن الفتح)، حديث رقم 4964.

(30) **فتح الباري**، ج8، ص936.

(31) **تفسير الطبري**، ج30، ص418.

(32) **رسالة الزمخشري**، ص234.

(33) **رسالة الزمخشري**، ص234.

(34) **الدر المصون للسمين الحلبي**، ج6، ص577.

(35) انظر: **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب** ، ج1، ص335.

(36) **حاشية الشيخ زادة على البيضاوي**، ج8، ص701.

(37) **مقدمة جامع التفاسير للراغب الأصفهاني**، ص156.

(38) **رسالة الزمخشري**، ص235.

(39) **تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور** ، ج30، ص574.

(40) **التفسير الكبير لابن تيمية**، ج7، ص49.

(41) لم أجده بهذا اللفظ وإنما أورده القرطبي عن أنس بلفظ (كان النبي ε ينحر ثم يصلي, فأمر أن يصلي ثم ينحر) القرطبي, ج20، ص218.

(42) **إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس** ، ج5، ص299-300.

(43) **المرجع السابق**، ج5، ص300.

(44) **أحكام القرآن لابن العربي**، ج4، ص1988.

(45) **فتح الباري لابن حجر**، ج7، ص548.

(46) **نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم**، محمد الغزالي، ص544.

(47) **إتقان البرهان في علوم القرآن** ، للدكتور فضل عباس، ج1، ص405.

(48) **نيل المرام في تفسير آيات الأحكام**، صديق حسن خان، ص366.

(49) **تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن**، رشيد رضا، ص90.

(50) **التفسير الكبير لابن تيمية**، ج7، ص50.

(51) **عروس الأفراح لابن السبكي**، ج1، ص332.

(52) انظر: **المصدر السابق**، ج1، ص334.

(53) **تفسير أبي السعود**، ج6، ص477

(54) انظر: **تفسير الرازي**، ج32، ص110.

(55) انظر: **نظم الدرر للبقاعي**، ج22، ص278.

(56) **رسالة الزمخشري**، ص237.

(57) **رسالة الزمخشري**، ص237-240.